عرض وتحليل د. ميلاد المقرحي*

مراجعات كتب:
العلوم الانسانية والايديولوجية

محمد وقيدي: (العلوم الانسانية والايديولوجية)
«بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر 1983» 194 صفحة

يتضمن هذا الكتاب ثمانية فصول يحاول المؤلف في الفصل الأول الاجابة عن السؤال الذي يطرحه: ما هي العلوم الانسانية؟ ويناقش في الفصل الثاني بعض إشكالات النشأة والتأسيس في تاريخ العلوم الانسانية، وفي الفصل الثالث يتناول المؤلف العلوم الانسانية بين الاعتراض على قيامها والاعتراف بصعوبتها، أما في الفصل الرابع فالمؤلف يتعرض للقانون والنظرية والمفهوم الاجرائي في العلوم الانسانية، وفي الفصل الخامس يناقش المؤلف مفهوم المادية التاريخية، وفي السادس علم الاجتماع المعاصر، وفي الفصل السابع يحاول المؤلف مناقشة تطور الصياغة الايديولوجية في الاستشراق وأخيراً يناقش المؤلف، في الفصل الثامن، مسألة الخلفيات الايديولوجية للعلوم الاجتماعية الاستعمارية.

ما هي العلوم الانسانية؟

قد تبدو الاجابة عن هذا السؤال سهلة، إلا أن الخطر يكمن في أن البداهة المفترضة في الاجابة قد تحجب التعقيد أو التعقد الكامن في الأسباب والمظاهر التي تدفع بالباحث إلى طرح مثل هذا السؤال، ومن هنا نجد أن المؤلف، محمد وقيدي، قام بمساءلة عدد من المفكرين البارزين عبر التاريخ من أجل أن يتعرف من خلال الحوار معهم على الوضعيات الأيديولوجية المتباينة التي طرحت من خلال العلوم الانسانية موضوع الكتاب الذي هو تحت المراجعة الان، ومن خلال هذا الحوار العلمي يحاول المؤلف توضيح الاشكال الأساسي في هذه العلوم كما يتجسد

* استاذ مساعد بقسم الدراسات التاريخية والاثرية، كلية الاداب والتربية، جامعة قاريونس، بنغازي.

في الوقت الحاضر، هذا الاشكال الذي تمثل ومازال في وظيفتها المعقدة ضمن مجموع المجال الحالي للمعرفة الانسانية بما في ذلك الايديولوجية.

ان الهدف من مساءلة المفكرين، كأبن خلدون (1332-1406)، وكارل ماركس (1818-1883)، وأوجست كونت (1798-1857)، هو أن يتعرف المؤلف، وبالتالي نتعرف نحن، من خلال الحوار التاريخي والعلمي معهم على الوضعيات المختلفة التي طرحت ضمنها مسألة العلوم الانسانية كما أشرنا سابقاً، في الفصل الأول يناقش المؤلف باهتمام تصور ابن خلدون للعلوم الانسانية إلا أنه يحذر القارىء بانه يريد بهذا ان يجزم بنشأة العلوم الانسانية مع ابن خلدون، ويتساءل المؤلف «ما الذي يقترحه علينا ابن خلدون عند حديثه عن التاريخ، من جهة، وعن علم العمران من جهة ثانية، هل يجدد في علم موجود أم أنه ينشىء علماً لم يكن معروفاً إلى حين كتابته للمقدمة؟»، (راجع ص 4-8)، يبدو ان ابن خلدون يهتم بهذين الأمرين معاً في آن واحد، فهو يبدي عزمه على التجديد المنهجي في علم عريق وهو علم التاريخ، في الوقت الذي يعلن فيه عن ادراكه بأن هذا التجديد قد قاده إلى اكتشاف علم جديد وهو علم العمران البشري.

وينتقد ابن خلدون في مقدمته المنهج الذي كان سائداً في التاريخ، ويقترح بدلا من ذلك منهجاً جديداً، التاريخ الذي يقتصر على الاخبار والرواية هو ماضي هذا العلم الذي ينبغي ان ينتهي، والتاريخ الذي ينظر في الاحداث والوقائع بهدف تفسيرها وشرحها وتحليلها وتعليلها هو مستقبل هذا العلم الذي يريد ابن خلدون ان يعلن عن بدايته، ومن أجل فهم صفة الشمول وصفة الجذرية اللتين يتصف بهما نقد ابن خلدون للتقليد التاريخي السابق له، ينبغي ان نعود إلى ماضي هذا العلم، لقد نشأ التقليد التاريخي عند العرب مرتبطاً بعاملين: هناك عامل ديني مرتبط بالمحافظة على العقيدة، وهناك عامل سياسي مرتبط بتطور السلطة السياسية وبالصراعات التي قامت حولها.

ان النقد الذي يقوم به ابن خلدون لا يهدف في الحقيقة إلى إلغاء التقليد التاريخي بل يهدف إلى احتواء مادة هذا التقليد مع التثوير المنهجي لطريقة النظر في تلك المادة، إلا أن ابن خلدون وهو يقيم تجديده المتعلق بعلم التاريخ وعلم العمران، لم يكن في الواقع بإمكانه ان يطلق على المجال المعرفي الذي يشتمل هذين

العلمين معاً اسم العلوم الانسانية.

أما أوجست كونت فيعلن عن ميلاد علم جديد ينسب إلى نفسه وضعه، وفي البداية يدعو كونت هذا العلم بالفيزياء الاجتماعية إلا أنه يستقر في نهاية الأمر على تسميته بعلم الاجتماع، وقد قام بعض الباحثين بالمقارنة بين اعلان كونت عن تأسيس علم الاجتماع وبين ما سبق لابن خلدون أن أكده بشأن علم العمران[1]، ويلاحظ المؤلف ان مثل هذه المقارنات تعوق الفهم الموضوعي لعمل كل من ابن خلدون وأوجست كونت، فهي في الوقت الذي تبحث فيه عن القرائن والأدلة التي تشير إلى نسبة نشأة علم الاجتماع إلى هذا المفكر أو ذاك، تتجاهل الاشارة إلى إعلان كل منهما عن علم جديد يضيفه إلى مجال العلوم الانسانية التي كانت سائدة في عصره، والحقيقة هي ان كلا من ابن خلدون وأوجست كونت يتحدث عن علم جديد موضوعه الاجتماع الانساني ومجاله العلوم الانسانية، ولكن دون ان يطابق بالضرورة ما يقصده كل منهما بهذا العلم، مع ما يقصده الاخر.

ويعتبر المؤلف ان كل من ابن خلدون وأوجست كونت يعبرا عن وعيهما بأنهما يضيفان إلى العلوم القائمة في عصرهما علماً جديداً يكون موضوعه الظواهر الاجتماعية، ولكن البنية المعرفية التي يضيفا إليها كل منهما العلم الذي يتحدث عنه مختلفة، كونت يعبر عن وعيه «بالأهمية المطلقة» للعلم الذي يتحدث عنه، كما يوضح ادراكه للشروط الايديولوجية والمعرفية التي يكون قيام هذا العلم استجابة لها جميعاً والتي تحتم قيامه، فهناك لاشك تغير في المجتمع الفرنسي، ولكنه تميز في عصر كونت بنوع من الأزمة الثورية، لقد سادت الفوضى العقلية الاذهان، وهي من وجهة نظر كونت مصدر للفوضى الأخلاقية أولا ثم للفوضى السياسية ثانياً، فرفع الفوضى السياسية واعادة النظام إلى المجتمع يقتضي ازالة الفوضى الأخلاقية، وهو بالتالي الأمر الذي يتطلب النظر في الفوضى العقلية باقامة المعرفة العلمية بالحياة العلمية للمجتمع، من حيث ان هذه المعرفة هي السبيل للتأثير في مجرى الحياة

---

(1) راجع مثلا زيدان عبد الباقي «الموازنة بين ابن خلدون وأوجست كونت» في **مجلة كلية الاداب والتربية**، جامعة قاريونس العدد 11 (1982)، ص 25-65.
يشير المؤلف إلى ان عبد الرحمن بن خلدون، المفكر العربي المسلم هو الذي توصل إلى ابتكار علم الاجتماع قبل أن يتوصل إليه علماء أوروبا بحوالي خمسة قرون.

الاجتماعية بصورة أكثر موضوعية (راجع ص 14-18).

ويتناول المؤلف في هذا الفصل أيضاً مسألة المادية التاريخية والعلوم الانسانية ويشير إلى أن كارل ماركس يتميز عن المفكرين السابقين بكونه لم يفكر في تأسيس علم خاص من العلوم الانسانية، ولم يدع انه يحاول ان يوحد بينها من حيث موضوعها في علم واحد بعينه، ولكنه يقدم بدلا من ذلك نقداً يشمل عدداً من الميادين المعرفية التي كانت تعتبر منذ ذلك الوقت، بداية للعلوم الانسانية الحالية.

في الواقع ان العلوم الانسانية لم تبدأ نشأتها عملياً وفعلياً إلا في القرن التاسع عشر، ويعتبر علم النفس وعلم التاريخ وعلم الاجتماعي ودراسة الاداب هي العلوم الانسانية الرئيسية الثلاثة أو العلوم الانسانية الاساسية، ولا يعتبر علم التاريخ مهماً بالنسبة لدوره المنهجي فحسب بل أن أهميته تكمن في أهمية موضوعه أيضاً، فدراسة أي موضوع من موضوعات العلوم الانسانية الاخرى تتوقف على دراسة جانب تاريخي فيه أو منه، إلا أن هذا لا يمنع من وجود الموضوع المستقل للتاريخ كعلم الذي هو دراسة الماضي الانساني والكشف عن قوانين التعاقب التاريخي، ويلاحظ المؤلف ان التساؤل عما هي العلوم الانسانية لازال من أهم الاسئلة القائمة بالنسبة لهذه العلوم.

وفي الفصل الثاني من الكتاب يتناول المؤلف بعض إشكالات النشأة في تاريخ العلوم الانسانية حيث يلاحظ ان نشأة العلوم الانسانية يعتبر ثورة في تاريخ الفكر الانساني، وفي الفصل الثالث يناقش المؤلف مسألة العلوم الانسانية بين الاعتراض على قيامها والاعتراف بصعوبتها حيث يشير إلى أن أهم ما يميز العلوم الانسانية اليوم هي أن عمليتها لازالت موضوع نقد خارجي وداخلي، على السواء، فهناك من ناحية الاعتراضات التي تعترض بها فلسفات كثيرة على إمكان قيام دراسة علمية للانسان أو بالانسان، وهناك من ناحية اخرى، التساؤلات التي يطرحها المهتمون بدراسة العلوم الانسانية حول ممارستهم العلمية، وحول القيمة العلمية للمناهج المستعملة في هذه العلوم.

المؤرخ، مثلا، يدرس دائماً الأحداث التاريخية التي مضت ولن تتكرر، ولذلك فإنه لا يستطيع إعادتها بأي حال من الأحوال لكي يلاحظها مباشرة، ويكتفي بأثارها أو بالوثائق التي يشهد بها عليها معاصرون لها .. كل هذا يجعل الحدث

التاريخي، في نظر من يعترضون على العلوم الانسانية، غير قابل لأن يكون موضوع دراسة علمية.

كما يتساءل المعترضون على العلوم الانسانية عن ما الذي يمكن ان تكشف لنا عنه العلوم الانسانية من سلوك الانسان؟ وما المظاهر التي تبدو العلوم الانسانية قادرة على تفسيرها؟ .. إلخ.

وفي الفصل الرابع يهتم المؤلف بمناقشة القانون، والنظرية، والمفهوم الاجرائي في العلوم الانسانية وهي قضايا عامة ثلاث يستخلصها الباحث في العلوم الانسانية من الواقع الذي يدرسه ويعالج بها هذا الواقع (راجع ص 108-114)، وفي الفصل الخامس يتناول المؤلف موضوع المادية التاريخية الذي سبق وان ناقشه في الفصل الأول باختصار، أما في الفصل السادس فيركز المؤلف على مناقشة علم الاجتماع المعاصر موضحاً كيف تتم عملية بناء موضوع المعرفة في علم الاجتماع (راجع ص 129-141).

مهما يكن من أمر فان الفصول التي لفتت انتباهي أكثر من غيرها وستلفت انتباه القارىء أيضاً إذا حاول الاطلاع على هذا الكتاب هي السابع والثامن، في الفصل السابع يناقش المؤلف مسألة تطور الصياغة الايديولوجية في الاستشراق وفي الفصل الثامن يتناول المؤلف بالتحليل موضوع الخلفيات الايديولوجية للعلوم الاجتماعية الاستعمارية.

يشير المؤلف إلى أن الاستشراق اهتمام ثقافي مصدره الغرب وهدفه الشرق، والاستشراق هو معرفة ودراسة اللغات والاداب الشرقية وهو أيضاً دراسة لتاريخ وواقع الشرق والمستشرق هو الدارس للغات الشرق وآدابه وفنونه وتاريخه وحضارته، وقد نشأ الاستشراق في البداية كفكر مرتبط بواقع مادي وهو الحركة الاستعمارية الغربية، وقد كان ما عبر عنه ذلك الفكر جزءاً من الايديولوجية التي كان هذا الواقع في حاجة إليها من أجل تبرير وجوده، فبقدر ما كان الغربيون يتقدمون في البناء الحضاري، كان هذا التقدم مقترناً بفكرة ان اكتمال البناء الحضاري من الناحية المادية لا يمكن ان يتم إلا ضمن علاقة السيطرة على العالم الاخر غير المتقدم أو الذي يسير في طريق التقدم، بالاضافة إلى ذلك هناك شعور آخر يتعلق بفكرة أن أوروبا هي مركز الحضارة والثقافة والفعل في التاريخ.

والواقع كما يؤكد المؤلف أن الاستشراق كنظرية نشأ ضمن نشوء ايديولوجية غربية تجعل من الغرب مركزاً للحضارة والثقافة، مثلا أرنست رينان «Ernest Renan»[1]، (1823-1892)، يرى انه ليس هناك إلا تواريخ ثلاثة تستحق الاعتبار وهي التاريخ الاغريقي والتاريخ الروماني وتاريخ اسرائيل، فهذه التواريخ مجتمعة وفقاً لوجهة نظر رينان الضيقة هذه، هي التي تكون ما يمكن أن يسمى بالحضارة.

ويعتقد رينان أن الحضارة العربية الاسلامية كانت عقيمة من حيث الانتاج العلمي والفلسفي، وهذه هي مكانة الثقافة العربية الاسلامية ضمن الرؤية الايديولوجية للتاريخ الذي تبناها الغرب في الفترة التي كتب فيها رينان ما كان يحلو له من سخافات، وينبغي أن نؤكد هنا ان الفكر العربي الاسلامي قد اضاف في كثير من مجالات المعرفة والعلم إضافات جديدة لايمكن ان ينكرها تحليل موضوعي منصف، بالرغم أنه من المحتمل ان تنكرها رؤية ايديولوجية كالتي تبناها أرنست رينان.[2]

ويشير المؤلف إلى أن التحليل المنصف لحركة الاستشراق بصفة عامة يوضح لنا بدون شك أنه بالرغم من سيطرة الرؤية الايديولوجية للبورجوازية الاحتكارية الأوربية على حركة الاستشراق، فان هذا لا يمنع من تبلور اتجاه استشراقي غربي بدا في نظرته لواقع وتاريخ الثقافة غير الغربية أكثر انصافاً، وهذا هو ما يسميه المؤلف بالمرحلة الثانية من الاستشراق، ويلاحظ المؤلف ان تحقيق الشروط العلمية في الدراسات الانسانية المتعلقة بالشرق يقتضي ان تكون هناك مساهمة فعلية من طرف آخر، فالطرف الموضوع في هذه الدراسات ينبغي ان يساهم ويصبح بدوره

---

(1) أرنست رينان مؤرخ ومفكر فرنسي ومن أشهر مؤلفاته «حياة المسيح»، نشر سنة 1863م.

(2) Edward W. said, Orientalism (New York, 1978) P. 156-157، يعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب عن الاستشراق وأحدثها جميعاً ومع ذلك فنحن لا نجد أي إشارة إلى هذا الكتاب الهام في هوامش كتاب محمد وقيدي، **العلوم الانسانية والايديولوجية**، لقد كانت العلاقة بين الشرق والغرب علاقة سيطرة وقوة نجد لها تعبيراً في عناوين الكتب الكثيرة التي تناقش تلك العلاقة مثلا:

K. M. Panikkar, Asia and Western Dominace (London, 1959).

طرفاً منتجاً للعلوم الانسانية.[1]

أما في الفصل الثامن فيشير المؤلف إلى أن دراسة الخلفيات الايديولوجية للعلوم الاجتماعية الاستعمارية أمر شائك، لأنه يتطلب من الباحث منذ البداية أن يحدد المعنى الدقيق الذي يبحث به عن الخلفيات الايديولوجية، في الواقع ان العلوم الاجتماعية الاستعمارية تعتبر استمراراً للأبحاث الاجتماعية الغربية التي بدأت مع علم الاجتماع عند أوجست كونت، فقد دعا كونت إلى دراسة الظواهر الاجتماعية في المجتمعات المتخلفة أو الأقل تقدماً، وتظهر السمة الايديولوجية للعلوم الاجتماعية الاستعمارية في ارتباطها بالأهداف العملية للحركة الاستعمارية، فالباحثون الاجتماعيون الذين صدرت عنهم مجموع الأبحاث التي يتكون منها علم الاجتماع الاستعماري كانوا مرتبطين بالسلطات الاستعمارية الغربية، ولذلك فإن المشكلات التي كان يتجه إليها البحث في العلوم الاجتماعية الاستعمارية لم تكن تمليها إهتمامات نظرية علمية محايدة ومتخصصة في البحث في العلوم الاجتماعية، بل كانت تفرضها حاجة السياسة الاستعمارية إلى معرفة تمكنها من التعرف على الاسلوب الذي ينبغي ان يكون عليه مسلكها إزاء المجتمعات المرشحة لكي تكون تحت السيطرة الاستعمارية الغربية.[2]

لاشك أن مظاهر الانفصام والتفكك التي اشارت إليها الدراسات الاجتماعية الاستعمارية على واقع البلاد العربية لم تدفع بهذه الدراسات إلى محاولة دراسة ظاهرة التخلف التي كانت تلك المظاهر جزءاً منها، صحيح أن مفهوم التخلف لم يظهر في مجال الدراسات الانسانية إلا بعد الحرب العالمية الثانية ولكن مع ذلك ينبغي ان نميز بين التخلف كواقع وبين التخلف كمفهوم، في الواقع ان ما تأخر في الظهور هو مفهوم التخلف ضمن التحليل الاجتماعي، أما الواقع الذي يرمز إليه

---

(1) راجع في ذلك محمد توفيق حسين «الاسلام في الكتابات الغربية» مجلة **عالم الفكر**، المجلد العاشر، العدد الثاني (1979)، ص 255-254، أحمد أبو زيد «الاستشراق والمستشرقون»، المصدر السابق، ص 255-276.

(2) جيرار لكلرك، **الانتروبولوجيا والاستعمار**، ترجمة جورج كتورة (بيروت، معهد الانماء العربي، 1982)، ص 13-49، يحاول جيرار لكلرك في هذا الكتاب ان يوضح الخطوط الرئيسية لتطور نظرة الغرب إلى المجتمعات التي كانت تحت السيطرة الغربية الاستعمارية، متخذاً من جدليات العلاقة بين الطرفين نقطة إنطلاق للبحث في الموضوع.

هذا المفهوم فقد كان موجوداً قبل ذلك، وقد كان بإمكان العلوم الاجتماعية الاستعمارية أن تحاول دراسته بموضوعية، ولكن هذه الدراسات لم تصل إلى هذا المستوى من التحليل الموضوعي كما أنها لم تتخلص من النظرة الاستعمارية المتعالية للمجتمعات الاخرى أي المجتمعات غير الأوروبية، فهذه الدراسات ظلت منغلقة على نفسها، ويؤكد المؤلف ان قصور التحليل الاجتماعي لهذه العلوم يرجع إلى أنه قد ظل سجين الأهداف والسياسيات العملية للحركة الاستعمارية الأوروبية وقد حال ذلك دون الفهم الموضوعي لواقع المجتمع العربي.

إن الكتاب الذي هو تحت المراجعة الان يعتبر من الكتب القليلة التي تتناول موضوع العلوم الانسانية، فالمؤلف قد نجح في الغرض من الدراسة وهو طرح الاسئلة الصحيحة والأساسية ومحاولة الاجابة عليها، وبالرغم من ادراكنا بان الموضوعية المطلقة مطلب صعب في مجال البحوث والدراسات الانسانية إلا أن المؤلف قد نجح إلى حد بعيد في تجنب خطر الانزلاق وراء تحيزه لايديولوجية معينة، ويركز الكتاب، كما رأينا، على موضوع واحد وهو العلوم الانسانية ويحاول بلورته منذ الصفحات الأولى وحتى النهاية، ويمكن القول ان ما يجمع فصول الكتاب الثمانية أمران أساسيان وهما: فهم دقيق وواعي لنشأة العلوم الانسانية منذ بداياتها الأولى وخصوصاً في فكر عبد الرحمن بن خلدون، وأوجست كونت وتتبع لتطور العلوم الانسانية منذ نشأتها حتى الوقت الحاضر، والأمر الثاني يكمن في تعاطف واضح من جانب المؤلف مع أوجست كونت وتقدير المؤلف لفكره باعتباره «مؤسساً» لعلم الاجتماع.

وأخيراً ينبغي أن نلاحظ أن الكتاب الذي حاولت عرضه وتحليل ما جاء فيه هنا تنقصه مقدمة وخاتمة، فالقارىء لا يجد مقدمة للكتاب تساعدة على فهم ما يريد المؤلف دراسته ولا توجد به خاتمة توضح للقارىء النتائج التي توصل إليها المؤلف، وهذا يعني انه على القارىء قراءة كل الكتاب حتى يمكنه ان يتابع افكار المؤلف ويتعرف عليها، وباستثناء بعض الهوامش الهامة التي يشير فيها المؤلف إلى بعض المصادر الفرنسية بالاضافة إلى عدد قليل من المصادر العربية لا توجد قائمة متكاملة باسماء المصادر التي رجع إليها المؤلف وهذا يعتبر عيب ثالث من العيوب الواضحة للكتاب، ومع ذلك فان المؤلف قد أبدى احاطة واستيعاباً شاملين لكل

الكتابات المصدرية التي تتعلق بالموضوع والتي يمكن للقارىء ان يتعرف عليها من خلال الرجوع إلى الهوامش أو من خلال قراءة الكتاب ذاته، الكتاب بشكل عام على مستوى جيد من التحليل وجدير بالقراءة وهو في جملته ممتع، كما أنه يسهم في ميدان الدراسات الانسانية اسهاماً جاداً، بالاضافة إلى ذلك فالكتاب يعتبر دراسة علمية موضوعية تهدف إلى إطلاع القارىء على تاريخ نشأة العلوم الانسانية وتطورها ونموها.